السرقة عند الأطفال

للسيدة زاهية مرزوق

قام مرة أحد المدرسين بالمدارس الابتدائية ، بحركة يشكر عليها ، وهى تعويد الأولاد الاقتصاد ، وخصوصا من مصروفهم الخاص ، ووضع أساس هذه الحركة ، على المنافسة بين تلاميذ فصله ، فنجحت الفكرة وقامت المنافسة بشدة بينهم ، كل ولد يحاول أن يكون فى أول القائمة ، وكان محمد الوحيد الذى لم يتحرك اسمه مرة واحدة من آخر القائمة ، وقد كان ذلك عظيما على نفسه خصوصا أنه يريد إشعار مدرسه بأنه من أفراد الفصل الحريصين على إرضائه ، ولم يسعفه ما بين يديه للظهور بهذا المظهر ، فبدأ يسرق من المنزل بعض النقود ، ويضعها فى صندوق توفيره ، وأصبح اسمه بذلك يتدرج فى القائمة حتى صار فى أعلاها ، وزاده إمعانا فى حظوة رضاء المدرس عنه وشعوره بالفخر والتفوق على أقرانه ، وازدادت قيمة النقود المسروقة ، حتى أثارت شبهة المدرس فيه فبحث الموضوع ، واتصل بالأسرة فافتضح أمر التلميذ المسكين ، وهكذا انقلبت الغاية إلى ضدها ، وأنتج التحمس للفضيلة رذيلة من أقبح الرذائل ، وأخطرها أثرا فى الأخلاق ، ولو أن الاقتصاد فى حد ذاته فضيلة يجب غرسها فى نفس الأطفال ، إلا أنه إذا زادت عن حد الاعتدال ، أو إذا انحرفت طريقة الوصول إليها ربما أدت إلى مثل ما حدث فى حالة الطفل محمد .

وربما كانت رغبة الطفل فى إرضاء والده أو والدته ، سببا فى تدرجه على السرقة ، وذلك كما حدث فى حالة الطفل "ب" الذى يدفع بحبه لوالدته إلى إيهامها أنه وجد عملا بسيطا فى فراغه اليومى بعد المدرسة ، وكان يأتى فى ميعاد محدد فى كل ليلة كى يوهمها بصدقه ، وأتى فى نهاية الأسبوع ، فأعطى والدته ما اكتسبه من هذا العمل الموهوم ، ولكن سرعان ما عرفت الأم أن ما أعطاه لها ولده إنما هو مسروق من نقودها الخاصة ، وبعد البحث فى هذه الحالة يظهر أن الدافع للطفل على القيام بهذا العمل ، إنما كان حبا فى تقليد والده فى حلب المال لأمه .

وإذا ما وجدت الأم نفسها أمام أمر واقع بأن تقدم طفلها السرقة فى شىء ما بقصد أو بغير قصد ، فإنه يجب عليها أن تشدد فى رد ذلك الشىء إلى أصحابه مع تقديم الاعتذار الكافى عن هذه الهفوة ، ويجب على صاحب الشىء ألا يهون على الطفل فعلته ، بأن يقول له مثلا "معلهش خدها الماره دى" بل يجب عليه أن يساعد فى توبيخه وتأنيبه غير ناظر فى ذلك إلى صداقته لوالديه أو قرابته لهما ، أما إذا كان المسروق نقودا ولم يكشف أمرها إلا بعد

صرفه ، فيجب أن يرد قيمته من مصروفه اليومى الخاص ، ولكن على دفعات بسيطة كيلا يشعر الطفل بوطأة الحرمان ، فيضطره الضغط إلى سرقات أخرى يسد بها حاجاته ويحفظ بها مركزه أمام رفاقه ،وقد حدث فى حالة الطفل "م" الذى حرم دفعة واحدة من كل مصروفه كى يكفر عن سرقة ارتكبها ، حدث أن صطر فى أول الأمر إلى التشكيك من بائع الحلوى ، ثم إلى التشكيك من رفاقه ، ثم إلى ستحدانهم جميعا ، ولما طال به الحال ، اضطر إلى مد يده بالسرقة إلى ممتلكات أقرانه . فكان يسرق كل ما يجده فى أدراجهم وملابسهم ، كى يسد ديونه أولا ، ثم يشبع رغباته ثانيا ، وظل على هــذه الحال إلى أن تنبهت المدرسة إلى أمره وفطن الوالدان إلى خطئهما ، ولكن لم يرجع الطفل إلى حالته الطبيعية ، إلا بعد أن بذل فى سبيله مجهود شاق كان الجميع فى غنى عنه .

ومن الآباء من يجد لذة فى زيادة ثمن الأشياء التى يشتريها ، فيقول مثلا إنه اشترى متر القماش بخمسين قرشا ، والحقيقة أن ثمنه ثلاثون قرشا فقط ، وذلك إمعانا فى الافتخار أو تعظيما لقيمة الشيء فى نظر أهل المنزل ، كى يزيد تقديرهم له والمحافظة عليه ، يرى الطفل ذلك من أبيه فيدفعه حب التقليــد إلى المغالاة فى ثمن الأشياء ، فعندما ترسله أمه لشراء شيء بعشرة مليمات ، يعود لها وقد زاد الثمن إلى خمسة عشر مليما . ولكن أين تذهب هذه المليمات الخمسة؟ بالطبع تذهب إلى جيبه الخاص ، وإن كان أمينا فسرعان ما يجعل لها تحليلا فى نفسه فيعتبرها "أجرة المشوار" وهكذا يبدأ الطفل أولى خطواته فى السرقة والكذب فى آن واحد فيجب على الأم أن تدقق مع طفلها فى مثل هــذه الأمور ، ولكن بطريقة لا تشعره بعدم الثقة أو الشك فى أقواله .

وقد يضطر الطفل إلى السرقة مجاراة للوسط الذى يعيش فيه ، وحفظ مركزه بين أقرانه وذلك كما حصل للفتاة "ل" التى كانت تسرق من والدتها المناديل والشرابات الثمينة لتلبسها فى المدرسة ، مثل صديقاتها الغنيات ، وقد وصل بها الحال إلى سرقة النقود ، كى تجاريهن فى الصرف والسخاء . وعندما كشف أمرها أشارت العيادة السيكولوجية بنقلها من هذه المدرسة إلى مدرسة أخرى ، تتمشى مع مستواها المادى ، وفعلا كان ذلك هو العــلاج الوحيد لإصلاح هذه الفتاة .

وغريزة حب الاقتناء والادخار إذا لم تهذب فى الطفل تهذيبا صالحا ، ربما دفعت به الى السرقة ، فقد كان الطفل "ص" ميالا الى اقتناء الألوان ، فكان يضطره ذلك الى أخذ جميع الأقلام الملونة وصناديق الألوان ، والصور الملونة والكتب والمجلات المصورة ، فكان يفصل منها الصور ويأخذها ليخفيها ضمن مجموعته الملونة . ووصل به الحال الى سرقة الصور من كتب المدرس نفسه ، والى فصلها من خرائط الفصل . وكثير من الأطفال تصل بهم

هذه الغريزة الى درجة تؤثر أشد التأثير فى حياتهم المستقبلة . وربما كان الطفل مدفوعا الى السرقة بعامل طبيعى لا سلطان له عليه ، كما حصل فى حالة الطفل الذى كانت تحصر كل سرقته فى أصناف الحلوى ، فكان يسطو على جيوب زملائه فيسرق منها الحلوى ، واشتد به الأمر فكان يضع الخطط المحكمة لسرقتها من "كنتين" المدرسة ، ولما تمادى فى ذلك وافتضح أمره ، جىء به الى العيادة السكولوجية واتضح بعد الفحص الطبى أن الغدد التى تقوم بإفراز المادة السكرية فى الجسم لا تقوم بعملها على الوجه الأكمل. ولذلك كان الطفل مضطرا لأكل الحلوى بكثرة ليسد ذلك النقص فى إفراز الغدد . وكان العلاج لهذا الطفل أن عولجت هذه الغدد وبعدها امتنع بتاتا عن هذه العادة .

ومن الأطفال من يبدأ السرقة بجس نبض أمه ، فيقول لها مثلا : إنه أخذ الشىء الفلانى من مكانه فتجرى الأم مذعورة لتتحرى الخبر ولكنها تجد الشىء فى مكانه لم يمس ، فيضحك الطفل منها ، والخطوة الثانية ، هى أن يأخذ الشىء فعلا ويخبرها به ، فإن أظهرت اهتماما عظيما بالأمر عاد مسرعا فوضع الشىء فى مكانه وإن لم يظهر عليها الاهتمام فالشىء له ، والخطوة الثالثة طبعا ، هى أن يأخذ الشىء ولا يخبرها به واذا سئل فإنه ينكر كل علم بأمره .

ودور البلوغ من أخطر المراحل التى يمر بها الشاب أو الفتاة ، لأنه دور انقلاب حاد ، لا فى الحالة الجسمية فقط ، بل فى الحالة النفسية والعقلية والاجتماعية ، فالشاب فى هذه المرحلة عنده الاستعداد الكافى للاستهواء ، لايدرى أين مركزه من المجتمع ، تجذبه المثيرات والمغامرات ، ويكون ميالا إلى الاختلاط بالجماعات ، وكم من شبان فقدوا مستقبلهم وأصبحوا من المتشردين وأصحاب السوابق فى نظر العرف والقانون ، نتيجة لهذا الدافع القوى والاختلاط بأقران السوء . ويظهر أثر ذلك واضحا بين الشباب الذين هم بطبعهم ضعيفو الإرادة سريعو الانقياد ، فإنهم يندفعون مجاراة للوسط الذين هم فيه .

أعرف أسرة لديها ثلاثة أولاد ، مروا فى مراحل التعليم الابتدائى بحالة طبيعية ، ولكن بعد انتقالهم إلى المرحلة الثانوية شذ الأوسط منهم ، وأصبحت أفعاله وأقواله تناقض بيئته التى تربى فيها ، وتخالف ما تعوده الناس من أدبه وكياسته ، وأصبح لا يحترم أحدا ولا يهاب شيئا ، فيكسر ويخرب كل ما يقف أمامه ، وزاد عنده الجشع وحب الأثرة ، فصار يغتصب كل ما تقع عليه يده من ممتلكات غيره ، وإذا ضاقت سبل الاغتصاب لجأ إلى جيب والده فيسرق منه ما يكفيه لسد نفقاته التى تكاثرت ، وديونه التى تراكمت وتعددت سرقاته ، وتطاولت يده حتى وصلت إلى أدوات المطبخ ، فصار يهربها ويبيعها ، علها تنفع فى سد ركن من نفقاته . وكثر تغيبه عن المدرسة وقل اكتراثه بمواعيد المنزل ونظامه ، وعلى العموم فإنه صار فى حالة تهدد كل ما بقى فيه من فضيلة ، وعند البحث فى حالة هذا الشاب . وجد أنه مختلط ببيئة سيئة لأغراض جنسية ويلتف حوله كثير من إخوان السوء

ممن دخلوا معه دور البلوغ أو ناهزوه قليلا وقد اتفقوا جميعا فى الآراء والأغراض وأصبحوا يزينون له أعماله بما يلائم نواياهم، ويمهدون له سبيل الغواية بما يعود عليهم بالربح ويعود عليه بالخسارة، ويشجعونه على التمادى فى السرقة ليدفعوا ثمن ما هم مندفعون إليه من عربدة وتبذير، وقد كان العلاج فى هذه الحالة أن انتزع الشاب من هذه البيئة الخطرة، وأبعد عن هؤلاء الإخوان الشياطين، وأدخل فى مدرسة بعيدة، بالقسم الداخلى، وأفهمت المدرسة ظروفه الخاصة حتى تضعه تحت الرقابة الدقيقة والإرشاد المستمر، ورتب له جدول أعمال مملوء بالمغامرات الرياضية وأغرى على الاشتراك فى الكشافة والمعسكرات، والرحلات والمباريات، وجعل رئيسا فى بعض أوجه النشاط حتى يشعر بالمسئولية الملقاة على عاتقه، وقد لوحظ عليه بعد ذلك تغيير واضح فى كل أعماله وحركاته وأصبح من قادة الرأى فى الحياة الاجتماعية بمدرسته وسرعان ما تغلبت عليه الروح الطيبة وأصبح من أحسن الشبان.

وكما يندفع الفتى فى دور البلوغ إلى جلب كل ما يملك وما لا يملك للفتاة التى يهواها، كذلك تندفع الفتاة بحب الظهور إلى تجميل نفسها بكل ضروب الزينة كى تروق فى أعين الشبان الناظرين، فإذا لم تسعفها مقدرتها المالية، فربما اضطرت إلى السرقة، كى تحفظ لنفسها حق التفوق فى الجمال على أمثالها، وقد حصل ذلك مع الفتاة "ب" التى كانت متوسطة الحال، ولكنها كانت ذات ولع شديد بحب الظهور، وكانت تطمح إلى أفخر الملابس وأغلاها ثمنا، وقد كان تقدمها فى السن دافعا لها على التمادى فى هذه الخطة. ولم تصل إلى سن السادسة عشرة، حتى اتسع نطاق سرقتها وامتدت يدها إلى المبالغ الجسيمة فاتهمت أخيرا بسرقة مائة جنيه من عمها الذى كانت تعيش معه طول هذه السنين، وكبر ذلك على العم، فاضطر فى نوبة عصبية إلى إبلاغ النيابة عنها، وقد اتضح من بحث الحالة أن سرقة الفتاة لم تكن تتعدى فى الأصل الملابس وأدوات الزينة، وكان لها فى ذلك سوابق عدة، ولما اشتط بها الحال، اضطرت إلى سرقة النقود كى تشبع هذه الرغبة المتأججة، وكان دفاعها عن نفسها، أنها ترى الأغنياء يلبسون هذه الملابس الفاخرة وهى وأمثالها محرومة منها!

من ذلك نرى أن من الصعب جدا تحديد علاج معين لحالات السرقة المختلفة، إذ أن العوامل التى تسببها كثيرة، والدوافع التى تدفع إليها لا يمكن حصرها؛ ولكن يجب أن نبحث فى كل حال على حدة، ونحصر همنا فى معرفة السبب ثم نوجه غايتنا إلى تلافيه، وفى هذه الحالة يكون الطفل كالمريض الذى يبدأ الطبيب بفحصه ومعرفة ما يشكو منه، ثم يصف له الدواء الملائم. أما طرق العلاج العاشمة كالضرب والحبس والحرق والتعذيب فهى طرق عديمة الفائدة وضررها أكثر من نفعها، وخير لنا أن نسقطها من حسابنا إذا أردنا خيرا بأطفالنا.

زاهية مرزوق